صِدامٌ أم ذوَبانٌ؟

تمهيـد: مِن أكثرِ الشّـواغِلِ المَطروحةِ في الواقعِ العربيّ أدبًا وفِكـرًا قضيّةُ التّعاملِ مع الواقعِ الحضاريّ الغرْبيّ. وقدْ شَغلتْ هذهِ المسألةُ الكاتبَ «يحيَ حقّي» في «قنديل أمّ هَاشِم» منْ خلالِ شَخصيّةِ إسْماعِيل الّتِي قَضَتْ سَبْعَ سنواتٍ في لُندن واطّلعتْ على ثقافةٍ جَديدةٍ لَمْ تَألفْها في مصرَ من قبْلُ.

1 كيف تَقْوَى ذِكْرَى هذا اليَوم على البَقَاءِ بعْدَ سـبْعِ سَـنوَاتٍ قَضَاهَا في إنْجلترا قلَبَتْ حَياتَه رأسًـا عَلَى عَقِبٍ. كانَ عفّا فَغَوَى، صاحيًا فسَكرَ، رَاقَصَ الفَتَيَاتِ وفَسَقَ. هَذَا الهُبوطُ يُكافِئُه صُعُودٌ لاَ يقـلّ عنْهُ جِـدّةً وطَرَافةً، تَعلّمَ كيْف يَتَـذوّقُ جَمَالَ الطّبيعةِ، 5 يَتَمتّعُ بغُرُوب الشّـمْسِ – كَأنْ لمْ يكنْ في وَطنِهِ غُروبٌ لا يَقِلّ جمالاً – ويَلْتَذّ بلسْعةِ برْدِ الشّمَالِ.

إنْ لمْ يكنْ لهُ في هذِه الفَتْرةِ سِـوَى (ماري) زَميلَتِهِ في الدّراسَـةِ لَكُفِيَ بهَا فِي نِسْيانِ ماضيهِ. لقد أخَذَ هذا الفتَى الشّرقيّ الأسمرُ بلُبّها فأثرتْه واحتضنتْه عندَما وهبتْه نفسها، كانتْ هيَ الّتي فَضّتْ براءتَهُ العذراءَ. أخرجتْه من الوَخْمِ والخُمولِ 10 إلى النّشاطِ والوثوقِ، فَتَحَتْ له آفاقا يَجهَلُها من الجمالِ: في الفنّ، في الموسيقى، في الطّبيعةِ، بل في الرّوحِ الإنْسَانيّةِ أيْضًا.

قالَ لهَا يَومًا: «سأَستريحُ عندما أضعُ لحياتي برنامجا أَسيرُ عَليْه».

فضَحكـتْ وأجَابتْ: «يَا عَزيزِي إسـماعيل. الحَياةُ ليْسَـتْ بَرْنامجًا ثابتًا، بَلْ مُجَادلةٌ متجدّدةٌ».

15 يقُول لها: «تعَالَيْ نَجلسْ»، فَتَقولُ له: «قُمْ نَسِـرْ». يُكلّمُها عَن الزّواجِ، فَتُكلّمُه عَـن الحُـبّ. يُحدّثُها عن المسْـتقْبلِ فتُحدّثُه عَن حَاضرِ اللّحْظـةِ. كَانَ من قبْلُ يَبْحَثُ دَائمًا خَارجَ نفْسِـهِ عَنْ شَـيْءٍ يَتَمَسّكُ بِهِ ويَسـتَنِدُ إليْه. دِينُه وعِبَادتُه، وتَرْبيَتُه وَأصُولُها، هِيَ منْهُ مِشْـجَبٌ يُعلّقُ عَليْهِ مِعْطفَـه الثّمينَ. أمّا هِيَ فكَانتْ تَقُـولُ لَهُ: «إنّ مِـنْ يَلجَأُ إلى المِشْـجَبِ، يَظَلّ طُولَ عُمرِهِ أسِـيرًا بجَانبِه يَحْرسُ 20 مِعْطفَه. يَجبُ أنْ يَكُونَ مِشْجَبُكَ في نَفْسِكَ». إنّ أخْشَى مَا تَخْشَاهُ هيَ: القُيُودُ، وَأخْشَى مَا يَخْشَاهُ هُوَ: الحُرّيّةُ. كَانَتْ هِبَتُها لَهُ في مَبْدَإِ الأمْرِ مَحلّ حَيْرَتِهِ، فَكَانَتْ

غَوَى: ضَلّ

فَسَـقَ: خـرج عـن طريـق الحـقّ والصّواب

الوَخْمُ: الثّقَلُ رَجُل وَخِيمٌ: ثقيل

مُجادلةٌ: مُخاصَمةٌ ومُناقشة

مِشجَبٌ: خشبٌ موثّقٌ توضعُ عليه الثّيابُ

حَيْرَتُه مَحَلّ سُــخْريَتِها. كانَ يَتجافَى النّاسَ وَيُقدّرُ احْتِمَالاتِ ودِّهِمْ، ويَهْتَمّ كيْفَ يَكونُ حُكْمُهُم عَليْه، وإذَا لقِيَ منْ تُريحُه المُجَامَلةُ لاَ يَجِدُ بَأسًا في مُجَامَلتِه، وقَلبُه غَيرُ مشَاركٍ. التّعَارُفُ عِندَهُ اصْطدَامٌ بيْن الشّخْصيّاتِ يَخرُجُ منه ظافِرًا أو خَاسِرًا.

25 أمّــا هيَ فَتَهيمُ بالنّاسِ جَميعًا، ولا تَهتَمّ بِهِمْ جَميعًــا. التّعَارُفُ عِنْدَها لِقَاءٌ، والوُدّ متْرُوكٌ للمُسْتقبَلِ، ومَعَ تَسَاوي وُدّهَا للنّاسِ جَميعًا، كَانتْ بَتّارَةً في إقْصَاءِ الضّعِيفِ، والسّــخيفِ، والمتَعَالِمِ، والرّذلِ، والحَزينِ، والمنَافقِ، فَلمّا تَخَلّصَتْ منْ هذهِ الأوْشَابِ أصْبَحَتْ لا يَنْجذِبُ إليها إلاّ مَنْ تَطْمَئِنّ لصحْبَتِهِمْ...

يحي حقّي، قنديل أمّ هاشم، دار الجيل للنّشر والطّباعة والتّوزيع
بيروت-القاهرة، سنة 2004، ص ص 22-24

الأوشابُ: أخلاطُ النّاس وأوباشُهم.

تعريفات

أعــلام:

المؤلّــف: يحيى حقّي [1905-1992] عرّف نفســه فقال: «إنّــي من أصل تركيّ، أوّل شخص من أسرتي وُلد في مصر هو أبي لا جدّي، واسمي في الطّابع التّركيّ هو حَقِّي»، تقلّب في العديد من المناصب السّياســيّة والإداريّة، من أشهر مؤلّفاته: «خلّيها على اللّه» و«قنديل أمّ هاشم»...

الفهم والتّحليل

1 - أقام الكاتب نصّه - خلافا للسّــائد - على ثنائيّة الإجمال والتّفصيل متنقّلا ممّا آلت إليه شــخصيّة «إســماعيل» حاضرا إلى استقصاء عوامل ذلك في بداية رحلته: تتبّعْ البِنية وفق هذه الخطّة.

2 - قــام النّــصّ في جزئــه الثّاني على تقابل أنتــج تعارضا في رؤية الشّــخصيّتيْن الحضاريّة والثّقافيّة: بيّنْ كيف ساهم ذلك في بناء خصائص تفكيرهما.

3 - ماذا يعني الكاتب بقوله: «التّعارُفُ عِنْدهُ اصْطِدامٌ بَيْنَ الشّــخْصيّاتِ يَخْرُجُ مِنهُ ظافِرًا أو خاسِرًا»؟

4 - لا يخلو النّصّ من الإشارة إلى عوائق الحوار: حدّدْها وبيّنْ عواملها.

التّفكير وإبداء الرّأي

أبدِ رأيك في من يرى أنّ كلّ من احتكّ بالحضارة الغربيّة مُنْتَه لا محالة إلى الانصهار في قيمها؟

إنتاج كتابيّ

للمقيمين في أوروبّا موقفان من حضارة الآخر: منبهر بمنجزاتها، ومحترز من تأثيراتها. اكتبْ نصّا قصيرا تفسّر فيه كلا الرّأييْن.

نافذة لغويّة

بَــلْ

1 - الحَياةُ ليْستْ برْنامجًا ثَابِتًا بلْ مُجَادَلةٌ مُتَجَدّدَةٌ.

بَـلْ: في هذا السّياق تفيد الإضراب والإبطال، فهي تنفي ما سبق إذا كان مثبتا وتؤكّد نفيه إذا كان منفيّا.

في المثال السّابق «بَـلْ» رابط حجاجيّ يعكس التّقابل بين رؤيتيْن للحياة، الأولى تصرّ على التّجدّد والثّانية منفيّة وتلحّ على الثّبات.

1) الخُرْشُفُ مُفيدٌ للأمْعاءِ، بَـلْ مُفيدٌ للكَبِدِ. ← «بَـلْ» تفيد الإضراب الكامل.
2) الخُرشُفُ مُفيدٌ للأمعَاءِ بَـلْ مُفيدٌ أيضًا للكَبِدِ. ← «بَلْ» تفيد الإضراب النّسبيّ.
3) الخُرشُفُ مُفيدٌ للكبِدِ بَـلْ دواءٌ للكُبَادِ. ← «بَـلْ» تفيد الإضراب للتّأكيد.

هلْ راجعْتَ «محْورَ الفنّ والأدَبِ»؟ بَـلْ هلْ شَرعْتَ في إعْدادِ «محْوَرِ الحَضارَاتِ»؟
يمكن للسّامع ألّا يجيب عن السّؤال الأوّل لأنّ المتكلّم أضرب عنه.

ما هو المعنى الّذي أفاده الرّابط الحجاجيّ «بَـلْ» في السّياقيْن التّاليْن:
- إنّهَا نُكْتةٌ ظَريفةٌ يا «مسـيو فوكيه» فأجَابَ الفَرنْسِيّ: «بَـلْ حَقيقَةٌ تَجْهَلُها أوروبّا.
/ بَـلْ .....
- يَا بُنيّ، اقْرأْ رِوايَةً بَـلْ مسْرَحيّةً. / بَـلْ .....

إغنـاء

... إنّ الجانب المأسـويّ في شخصيّة «إسـماعيل» كامن في عدم قدرته على الحوار، وفي استسلامه للسّائد والمألوف دون طويل مناقشة، على عكس ما قد يبدو للمتعجّل ! إنّ «إسماعيل» - على طول الرّواية - لم يُجْرِ حوارا قطّ؛ لا مع مجتمعه وعقائده وعاداته وتقاليده... ولا مع الحضارة الأوروبيّة التي سافر إليها وقضى في أحضانها سبع سنوات طوال.

لقـد استسـلم في أوروبا لأوّل مؤثّراتهـا، في كنف «ماري» الّتي يعـترف بأنّها كانت أسـتاذته، فلم يحاور معتقداته وما كان يؤمن به، ولم يحاور العقيدة الجديدة التي أتته بهـا «مـاري»، العقيدة الاجتماعيّـة والفكريّة معا؛ فكان ردّ فعله أن سـقط صريع أزمته الفكريّة والنّفسـيّة... فـ«إسماعيل» لم يكن غير «ردّ فعلٍ» ولم يكن أبدا «فاعلا»؛ وهو يتعامـل مع قضاياهُ وأزماتـه تعامُلا عصبيّـا لا تعامُلا فكريّا واعيًا يمكّنـه من النّقاش والحـوار الّـذي يُثبّت ما يراه صالحـا وينفي ما يراه غثّا أو مُضـرّا. ولهذا لم يكن غريبًا أن تنقلِـب نظرتُه - أعني حياتَـهُ - تماما في أوروبّا من الإيمان والصّلاح والتّقوى وحُبّ النّاس والذّوبانِ فيهم، كما كان في مصر، إلى إهمال للدّينِ وفرائضِه والاستسلام لفتيات أوروبّا، الواحدة بعد الأخرى.

إنّ كلّ ما فعله «إسـماعيل» هو أن اسـتبدل بالإيمان الذي زرعه في نفسه «الشّيخ دردير» وأمثاله، إيمان «ماري» وأمثالها.

عصام بهيّ «إيديولوجيا المصالحة في قنديل أمّ هاشم»، فصول مجلّد 5، عدد 4، سنة 1985، ص 182

الأدواتُ [العامِلةُ / الرّابِطةُ]

منطلقات

1 - إنّ هذا الشّعْبَ الّذي تَحْسَبُهُ جاهِلاً لَيَعْلَمُ أشياءَ كثيرةً لكنّهُ يعْلَمها بقلْبِهِ.

إنّ : أداة عاملة تدخل على الجملة الاسميّة فتغيّر اللّفظ (المسند إليه) وتبقي على المعنى، تؤكّده وتثبّته.

2 - الحَياةُ لَيْسَتْ برنامَجًا ثابتًا بلْ مُجادَلةٌ مُتجدّدةٌ.

لَيْسَ: أداة عاملة في المعنى دون اللّفظ (المسند إليه) على عكس «إنّ» وعدم التّأثير في ما يليها لا ينفي عملها في مضمون الجملة.

لَكِنّ: أداة استدراك على ما قبلها، تربط بين جملتين.

بَلْ: أداة استدرك بها الكاتب على مفهوم جامد ثابت للحياة. فالجملة تُقابل بين مضمونيْن للحياة (الثّبات ≠ المُجادَلة).

تطبيقات:

- ما الفرق بين الأداتين العاملتين في الجملة التّالية معنى وشكلا؟

قَد انطَوتْ كالحُلْمِ ولَمْ تترُكْ أثَرًا في هؤُلاءِ الأحْفادِ.

قَد: أداة تحقيق تدخل على الجملة الفعليّة فتؤكّد مضمونها.

ولَمْ: أداة نفي تدخل على الجملة الفعليّة فتعمل في مضمونها نفيا.

- فيم تختلف «قَدْ» عن «إنّ» / و«لَمْ» عن «لَيْسَ»؟

«إنّ» و«لَيْسَ» عاملتان في الاسميّة.

«لَمْ» و«قدْ» عاملتان في الفعليّة.

استنتاجات:

الأدواتُ العامِلةُ في الجُملةِ

- الاسْميّةِ
  - إثباتا: إنّ.
  - نفيا: ليْسَ.
- الفعليّةِ
  - إثباتا: قَدْ، لَقدْ.
  - نفيا: لَنْ، لَمْ، مَا...

← تدخل على الجملة فتؤكّدها وتثبّتها بـ«إنّ» وتحقّقها بـ«قَدْ»، وتنفيها بـ«لَمْ» و«مَا» و«لَنْ».

- الرّوابط بين الجمل كثيرة أهمّها: «الاستدراك» بـ«لكِنْ» و«غَيْرَ أنّ» و«إلاّ أنّ» والإبطال بـ«بَلْ» والسّببيّة بـ«الفَاءِ» والرّغميّة بـ«رغْمَ أنّ»...

- العوامل تدخل على الجملة، والرّوابط تربط بين جملتين فأكثر. وفي كلتا الحالتين فإنّ للأدوات دورا في تأكيد المعنى والرّبط بين المعنييْن خدمة للحجاج والتّعليل.